المبحث الثالث

التَّغني ببعض مدن الوطن ومظاهر الجمال فيه

لم يتوقف العلاف في شعره الوطني عند مجرد الحث على النهوض بالوطن، أو نقد بعض الأدواء والعيوب الاجتماعية الطارئة على بعض أفراده، و إنما تجاوزهما إلى التغني ببعض مدنه، وبما حباه الله من مظاهر الجمال.

لقد جال العلاف ببصره في معظم أرجاء وطنه، فوجد ما يشده إلى هذا الوطن ويجذبه إليه، فشد قيثارته، وراح يشدوبما وهبه الله لهذا الوطن، وما خصه به من فضل.

فعلى ثراه الطاهر (مكة المكرمة) منطلق الرسالة الإسلامية ومبعث أنوارها. فيها ولد خير البشرية وسيدها محمد ﷺ، وبين أحضانها نما وترعرع، وفيها بيت الله الحرام، والمشاعر الإسلامية التي يؤمها المسلمون من كل حدب وصوب. وفيه (طيبة الطيبة) التي خصَّها الله بما خصها به تفضيلا، فيها أول مسجد أسس للتقوى (مسجد قباء)، ومسجد رسول الله ﷺ، وقبره وكثير من صحابته الكرام - رضوان الله عليهم - وذكريات حافلة بالمجد والمفاخر، التي لن تهملها ذاكرة التاريخ مهما تقادم بها العهد. عدا بعض المدن التي حباها الله بالجمال، فكانت محط أنظار الناس، يقصدونها للترويح

عن أنفسهم بما توا فرفيها من مناظر طبيعية خلابة، وأجواء تدفع السأم عن نفوس مرتاديها وتنشر البهجة والسرور فيها.

ولم يخل شعر العلاف الذي دار حول هذا الجانب من لفت أنظار المسؤولين إلى احتياجات تلك المدن من المشاريع التنموية والمرافق الخدمية، واستثمار ما يمكن استثماره منها سياحياً، لتوافر معظم المقومات التي تقوم عليها السياحة وتنشط.

وقد كانت (أم القرى) أول ما استوقف الشاعر من تلك المنظومة الرائعة، فهي المكان الذي استقبله طفلاً لا يعي من أمره شيئاً، وبين ردهاته وزواياه نما وترعرع، وعندما شب عن الطوق ورأى ما رآه فيه اختاره سكناً لا يبرحه إلاَّ ليعود إليه، ممتطياً صهوة شوقه الثائر، محملاً بالحنين، ليعلن عشقه لذلك المكان الذي زاده الله جمالاً وبهاءً[72]:

اِخْتَرْتُ مَكَّةَ وارتَضَيْتُ حِماها
هي مَولدي، هي مَنْشأي، أهواها
أَكْرِمَ بِها، وبأرضِها، وسَمائِها
وبماءِ زَمْزَمَ ناجِعاً غذَّ اها
وبما اصْطَفتْ من قِبلةٍ مَيمونَةٍ
جَذَبتْ قُلوباً حَوْلها وجِبَاها
كَمْ طِفْتُ أرجو أنْ أكُونَ حِجابَها
وقِنَاعها، وأعِيشُ في ذِكْراها

وإطارُها الفُضيِّ يَحْضُنُ قَلْبَها
مُـتَـجـلِّيـاً قـد بـارَكَ الأفـواهـا

ويصف الكعبة المشرفة بأنها حبة في قلب مكة المكرمة، ويذكر بعض نعم الله عليها، حيث كساها بالجلال والرفعة. ويجسد تعلق الناس بها وانجذابهم وتدافعهم إليها من كل فج عميق، يذكرون الله فيها، ويسألونه رحمته وغفرانه[73]:

هي حَبَّةٌ في قَلْبِ مَكَّةَ حَفَّها
فَضْلُ الإلهِ، وبالجَلالِ كَسَاها
والنَّاسُ وفْدٌ تِلْوَ وفدٍ حَوْلَها
مـن كُـلِّ فَجٍّ يَسْـــألونَ الله

ولمكة المكرمة هالة نورانية أسبغها الله - سبحانه وتعالى - عليها، وزادها مكانة ورفعة في حنايا المسلمين، كونها الأرض التي احتضنت سيد البشرية[74]:

بَطْحاءَ مَكَّةَ كُلُّ شِبْرٍ باسمٍ
بالنُّورِ مِنْكِ، وفي العَطَاءِ تَنَاهى
قد زَادَهُ مِيلادُ (أَحْمدَ) رِفْعةً
وعلى حِرَاءٍ قد تَكَلَّلَ جَاها

وفي نص آخر يلفت الانتباه إلى حاجتها لعدد من المشاريع

التنموية الضخمة، تكفل لقطانها والقادمين إليها من مختلف أقطار المعمورة الاستقرار والراحة التي ينشدونها[75]:

نِصْفُ المساحاتِ في أُمِّ القرى وَعُرتْ
في صَخْرِها الصَّلْدِ بالإشْعاعِ يَنْثالُ
إنَّ الجِبالَ بها عَزَّتْ معارِجُها
وللضِّعافِ بها شكوى و بَلْبالُ
أنفاقُها ليس تُغْني عن مَطالِعِها
وظَهْرُها كالِحٌ ما فيه إظْلالُ
متى أراها بِتَشْجِيرٍ مُرَصَّعَةً
عُلْوُّها مُتْعَةٌ و الرِّيُّ هَطَّالُ
فيها المصابيحُ لَيْلاً أنْجُمٌ نُثِرتْ
ولِلْفَنادِقِ والتَّرْويحِ إطْلالُ
أما (مِنى) فهي مازالتْ مهيأةً
سَيَعْظُمُ الضَّغْطُ مافي الوقتِ إمْهالُ
بِئْسَ الخِيامُ فقد سَاءتْ عواقِبُها
وفي البناءِ مَلاذٌ وهو فعَّالُ

وتقع عيناه على (جدة) بعد أن امتدت إليها يد النهضة، فشدهه جمالها، وفتنه حسن تخطيطها، وروعة عمرانها، فانطلق متغنياً بمارآه، قائلاً[76]:

كم ذا رأيتُ وبالطَّيرانِ مُرْتَحِلاً
تَخْطِيطَها الحُلْوَ والأمواجُ تَختالُ
غَنيةٌ هي بالألوانِ ساحِرةٌ
من الطَّبيعةِ والعُمرانُ أَشْكالُ
البَحْرُ من تَحْتُ والزَّرقاءُ مُطْبِقةٌ
من فوقِهِ و الحَنايا الخُضْرُ خَلخالُ

وينتقل إلى تجسيد ليل جدة، وتدافع الناس فيه إلى شواطئها الجميلة، طلباً للراحة النفسية التي يجدونها في حضرة البحر، وهمس أمواجه المتلاحقة(77):

والليلُ فيها تَفوقُ الصُّبحَ فِتْنَتُهُ
هو الرَّبِيعُ تَوارَتْ عنه أشْغالُ
وفي الشَّواطِئِ أفواجٌ مرفَّهةٌ
من حَولِها الزَّهْرُ بَسَّامٌ ومَيَّالُ
رَقَّ الهواءُ ونجوى كُلِّ هامِسَةٍ
والبَحْرُ صَدْرٌ ولِلأسْرارِ حَمَّالُ

ويمم وجهه شطر (الطائف)، فتفتنه الطبيعة الخلابة، وتنعشه الأجواء الجميلة، فتهيج شاعريته، فينطلق مجسداً روعة وجمال الطائف، الذي يأسر العين والقلب معاً، قائلاً(78):

والطَّائفُ الخَصْبُ جَنَّاتٌ مُحَمَّلةٌ
يُتَرْجِمُ الطَيْرُ فيها سِيرةَ الشَّجَرِ
كم مَجْلسٍ برباها الخُضْرِ مُتَّسقٍ
خِلالَهُ البِشْرُ طَلْقَ الجَوِّ والزَّهْرِ
تَأَلَّفَ الصَّحبُ طُراً فيه واتَّصلَتْ
به الكُؤوسُ حلالاً طَيِّبِ الأثَرِ
يَكَادُ يَخْطُفُ ضَوْءَ العَيْنِ رَونقُهُ
ويَسْتَعيدُ به الأعمى سنا البَصَرِ
كأَنَّهُ الذَّهَبُ المحلولُ مُتَّقِداً
وقد طَفَا فوقهُ نَثْرٌ من الدُّرَرِ

ويسترسل في التغني بمظاهر الجمال في الطائف، الطبيعية منها والصناعية[79]:

فنحن مابين روضٍ مُعْجِبٍ نَضِجَتْ
قُطوفُه وتدلَّتْ نُهْزَةَ الوَطرِ[80]
وبركةٍ عَجَبٍ تَزْهُو بِرِقَّتِها
يَمْضِي النَّسيمُ بها ريانَ من خَدَرِ
كَأَنَّها الماسُ لولا أن صَفْحَتَها
خَفَّاقةٌ كَفُؤادِ العاشِقِ الحَذِرِ
والماءُ فيها وضيءٌ لذَّ مشربُه
وراقَ مَسْراهُ بين التُّرْبِ والحَجَرِ

كَـأَنَّهُ الطَّوقُ فـي جيـدِ الفَـتـاةِ بدا
من فِـضَّـةٍ لَمَعَتْ في سُـمْـرةِ البَشَـرِ

ويبدو أن جمال الطائف قد أغراه بالمكوث فيها طويلاً، متنقلاً بين بساتينها الوارفة الظلال والعامرة بالخير الوفير[81]، وجبالها التي تزاحم النيرات مناكبها الضخمة، وترنو إلى الخضرة التي تكسوها النجوم بإعجاب شديد[82]، و أوديتها التي عُقدت بينها وبين السحب صحبة، فهي لا تفارقها إلا لتعود إليها ساكبة في أحضانها أشواقها الملتهبة[83].

وكيف لا تأخذ الطائف - بكل ما تحفل به من جمال وفتنه - كل هذه المساحة من شعره الوطني، وقد تعلق بها قلبه، حتى إنه لم يعد يطيق فراقها[84]:

بِقـاعٌ كُلَّمـا ذُكِـرتْ أَهَاجَتْ
بِنَفْسي لاعجَ الشَّـوقِ المُهِـيبِ
إذ الرَّوضَاتُ باسِمـةُ المُحيَّا
مـقـلدةً بِكـلِّ جـنىً رطيبِ
وفيـها المِشْمشُ الوهَّاجُ يَحْكي
كُـريَّاتٍ من الذَّهبِ الخلوبِ
وقد غَنِجتْ بها الأغصانُ دَلاً
على الأنسامِ عـابِثَـةَ الهبـوبِ

تَسُحُّ البِـئْـرُ أدمُـعَـهـا غـزاراً
جَـداولُ هَمُّـهـا دَوْمُ النَّحـيبِ
وقد طُبِعَتْ رسومُ الرَّوضِ فيها
كـمـرآةٍ مُـزَخْـرَفـةِ الجُنُوبِ
هُنَالِكَ تُمْـلأُ الدُّنْـيـا هَنَـاءً
علينا عِنْدَ نسـيـانِ الكُروبِ
نُحِسُّ لِكُلِّ شيءٍ فَيْضَ مَعْنى
عـمـيقٍ في مشـاعـرِنا غـريبِ
هُناكَ المشـهـدُ الفـتَّانُ يَسْـري
شـذا نفـحـاتِه بِنَدى المَغـيبِ
هـو الإلْـهـامُ تُعْلِنُ عـن رُؤاهُ
دُعـاةُ الطَّيـرِ وافِـرةُ النَّصـيبِ

وتقوده خطاه إلى (الباحة)، فيأخذه الجمال الذي راح يعلن عن نفسه في بعض مدنها وقراها، لينطلق شادياً بما رآه، حيث يقول[85]:

لستُ أنسى مَـقـيلَ عَـذْبةَ يزهو
بِـرِفَـاقٍ تَخـالُـهـم عُنْقـودا[86]
وهواءً يَلـذُّ في العظم مـسـرا
هُ و يُعْـدي انطلاقُـه المكـدُودا

يُنعِشُ الفكرَ والمزاجَ ويُزْجي
بشبابٍ يبثُّه تَجْسيدا[87]

و إلى المندقِ البَهيِّ خَطرْنا
في شِعافٍ الجبال نَعْلو الحدُودا[88]

حولنا تَعْمقُ النَّفانِفُ قاعاً
كُلُّ شِعْبٍ تخاله أُخْدودا[89]

وزُروعٍ تدرَّجَتْ في انسيابٍ
ونظامٍ - إلى السُّفوحِ -أُجيدا

ونَباتٍ تَهزُّهُ نَسماتٌ
يَبْهَرُ الطَّرْفَ نُضْرةً وقُدودا

وأزاهيرُ كالنُّجومِ ولكنْ
أين منها النُّجومُ عَرْفاً مَديدا[90]

أين منها النُّجومُ لوناً بهيجاً
ورموزاً إلى الرَّخاءِ جديدا

تِلكَ أرضٌ بها الجمالُ حَفيٌّ
أَتَعزَّى بِذِكْرِها مُسْتَعيدا

صِبْغَةُ الله أَتْرعَتْها جلالاً
فَتَأمَّلْ فلن تَرُومَ مَزيدا

وفي قصيدته (متنزهات)[91] يحشد كثيراً من الأماكن الجميلة التي يزدحم بها وطنه. وكأني بالعلاف من خلال وقوفه

عند بعض المدن الجميلة في وطنه المترامي الأطراف، و إشارته إلى بعضها، يدعو - بصورة غير مباشرة - إلى الاهتمام بها، وتهيئتها للسياحة والاصطياف، والاستفادة من عائداتها في نهضة الوطن وتقدمه، وفي الوقت ذاته يرغب أبناء الوطن في زيارة تلك الأماكن وارتيادها في إجازاتهم بدلاً من السفر إلى خارج الوطن، وتكبد المشاق، و إنفاق الأموال هناك دون طائل.

obeikandl.com